الله تعالى، ولا يتنافى معه. وأن ارتفاع مستوى دخل الفرد رهن بممارسة الأسباب المفضية إلى الحصول على الدخل، والتقاعس عن العمل يفضي إلى قلة الدخل ونقص الرزق، ومن ثم فإن الإنسان هو المسئول عما يناله من غنى أو يحل به من فقر، والتعلل بالقدر في هذا الموضوع جهل. يقول ابن القيم بعد أن وضع ابتناء المصالح على الأسباب والأعمال: «ومن تفقه في هذه المسألة وتأملها حق التأمل، انتفع بها غاية النفع، ولم يتكل على القدر جهلاً منه وعجزاً وتفريطاً وإضاعة، فيكون توكله عجزاً، وعجزه توكلاً، بل الفقيه كل الفقيه الذي يرد القدر بالقدر، ويدفع القدر بالقدر، ويعارض القدر بالقدر، بل لا يمكن للإنسان أن يعيش إلا بذلك»[1].

هذه سنة الله تعالى في تحصيل الدخل على المستوى الفردي، أما على المستوى الجمعي أو المستوى القومي، الذي نتحدث فيه عن دخل الأمة، ومستوى معيشة الجماعة الذي يتحقق لها من هذا الدخل، فإن لله سبحانه وتعالى سنة تحكم هذا الجانب، وتوضح متى تعيش الجماعة في رغد العيش، ومتى يحل بها ضنك المعيشة وسوء الأحوال، وسنبينه في السنة الإلهية الخاصة برغد المعيشة أو ضنكها.

٣/٤: سنة الله تعالى في رغد المعيشة وارتفاع مستواها

تحدثنا في البند السابق عن سنة الله تعالى في تحصيل الرزق (اكتساب الدخل) وتبين لنا أن ذلك يتبع العمل الذي جعله الله تعالى سبباً في تحصيل الرزق واكتساب الدخل وينطبق ذلك على المستوى الفردي، حيث يبذل الفرد

---

(١) ابن القيم، الجواب الكافي، مرجع سابق، ص ١٧.

جهده ويسعى سعيه في تحصيل الرزق واكتساب الدخل، بيد أن بعض الأفراد قد لا يتمكن من السعي الذي يولد الدخل الذي يسمح له بالحياة الطيبة، وبعضهم قد يحقق دخلاً كبيراً لكنه ـ للظروف المحيطة بالمجتمع ـ لا يحقق لنفسه رغد العيش وطيب الحياة.

إن رغد العيش وطيب الحياة وارتفاع المستوى المعيشي في المجتمع له مقومات أخرى، ليس عمل الأفراد وسعيهم إلا واحد منها فقط، ولكن يبقى الكثير من الاعتبارات المتداخلة، والتي تشترك في إتاحة الحياة الطيبة للمجتمع، وتمتع أفراده جميعاً بالمستوى المعيشي الجيد، وتحقق الرفاهة والسعادة لهم، أو تفعل بهم عكس ذلك، فيحل بالمجتمع ضنك المعيشة. وسوء الأحوال مع أن حجم الدخول والثروات في أيديهم ليس بالقليل.

إن سنة الله تعالى في هذا الميدان هي «العدل» والعدل شريعة الإسلام ومطلب أساسي، وركن من أركان النظام، فإذا بنيت الحياة على العدل الاجتماعي والعدالة في التوزيع، ظهرت آثار بركات الله تعالى وتوفرت الطيبات وفاضت، وإذا ساد الحياة الظلم الاجتماعي وبنيت العلاقات الاجتماعية على الأثرة، وغاب منها العدل، نقصت الطيبات، ولفت المجتمع المشاكل التي تأخذ بخناقه وتجعل معيشته ضنكا.

إن العدل الاجتماعي هو السبب، ورغد العيش ووفرة الطيبات هي المسبب. والعدل هنا هو جماع الإسلام، والالتزام به في كل مجال.

لقد جاءت آيات الكتاب الكريم موضحة أن الالتزام بهدى الله تعالى وتطبيق شريعته، يمكن المجتمع من الحياة الطيبة، فيغدق عليه الخيرات،

وتفيض عليه البركات. يقول سبحانه ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[الأعراف:٩٦]، كما يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾[المائدة:٦٦]. ويقول سبحانه: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾[الجن:١٦].

إن هذه الآيات تربط بين تطبيق شريعة الله تعالى ـ وقوامها العدل ـ وبين ازدهار الحياة، وكثرة الخيرات، وتنزل البركات. فإذا صيغت سلوكيات المجتمع في شتى المجالات وفق شريعة الله تعالى فإن النتيجة هي أن يحيا حياة المجتمع طيبة، يرفرف عليه الأمن، ويظله الغنى، وتشيع الرفاهية في كل جناته.

إن شريعة الله تعالى في الميدان الاجتماعي تعنى عدالة التوزيع ﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾[الحشر:٧] وشريعة الله تعالى في الميدان الإنتاجي تعنى العمل الدائب، وصيانة الموارد والمنتجات من التبديد والضياع، إسرافاً وتبذيراً، وهي في ميدان الاستهلاك حماية للطيبات من أن تستخدم فيما لا ينبغي أن تستخدم فيه، كما تعنى حماية السلوك الاستهلاكي من البخل والتقتير، وترتيب أولويات لإشباع الحاجات، تبدأ بالضروريات ثم الحاجيات وتقف عند الكماليات، فلا يتجاوزها السلوك الاستهلاكي ليقع في براثن الترف.

إن شريعة الله قد جاءت أيضاً بتحريم الربا وإيجاب الزكاة، كما جاءت داعية إلى تبنى أكفأ أساليب الإنتاج واعدل أساليب التوزيع والاستقامة على

هذه الشريعة، تقود إلى نتيجة لا تتخلف وسنة لله لا تتبدل هي وفرة الخيرات، وزيادة الطيبات، ورغد العيش وطيب الحياة.

إن خلاصة هذه السنة، أن العمل داخل الأُطُر الصحيحة، مع الالتزام بالقيم، ينتهي بنا إلى تحقق الوفرة والرخاء، وطيب العيش والحياة. وهذا هو ما عبرت عنه الآيات الكريمة التي أوردناها، فهي قد تحدثت عن علاقة قائمة بين تطبيق شريعة الله تعالى، وبين وفرة الخبرات. وقد عبرت الآيات الكريمة عن الالتزام بشريعة الله تعالى بأنه الإيمان والتقوى مرة، وإقامة التوراة والإنجيل وسائر ما نزل على البشر من ربهم مرة، والاستقامة على الطريقة مرة ثالثة. كما عبرت عن النتيجة المترتبة على هذا الالتزام بأنه فتح البركات من السماء والأرض مرة. وأنه أكل البشر من فوقهم ومن تحت أرجلهم مرة، وأنه سقياهم ماءً غدقاً مره ثالثة.

فالسنة التي تقررها هذه الآيات تتلخص في أن وفرة الطيبات ورغد العيش وطيب الحياة إنما يترتب على الالتزام بشريعة الله تعالى وركنها الأساسي الذي هو العدل في كل المجالات.

ذلك هو الجانب الإيماني من هذه السنة، وهناك الجانب المغاير والذي يمكن أن نهتدي إليه عن طريق الأخذ بمفهوم المخالفة الذي تهدى إليه الآيات السابقة، وهو الارتباط بين الخروج على شريعة الله تعالى، والنقص في الخيرات، وانخفاض مستوى الطيبات ومستوى المعيشة في المجتمع. وبرغم إمكانية فهم ذلك من مفهوم المخالفة لما قررته الآيات السابقة- كما قلنا- إلا أن الله

تعالى قد أشار في كتابه الكريم إلى هذا الجانب من هذه السنة إشارات صريحة فقال على سبيل المثال ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه:١٢٤]

فالإعراض عن ذكر الله تعالى، والكفران بنعمته سبحانه هو الخروج عن أحكام شريعته، وعدم الالتزام بتطبيقها ورفض إقامة الحياة الاجتماعية على هدى منها، هذا السلوك من المجتمع تعقبه نتيجة لازمة له، هي ضنك المعيشة بما يحمله من انتشار الجوع أو فقد الأمن، وملازمة ذلك للمجتمع كأنه لباس يحتويه ويشتمل عليه.

يحدث ذلك للمجتمع، حتى في ظل كثرة الموارد، والقيام بالإنتاج، لكن غياب العدل الاجتماعي والعدل بصفة عامة والذي قلنا إنه ركن الإسلام الأكبر، يجعل الأثرة والاستئثار في جانب ويجعل الجوع والاحتياج لباساً للجانب الأكبر من أفراد المجتمع، كما يجعل الخوف وعدم الأمن لباساً للجميع، بسبب صنيعهم وغياب العدل الاجتماعي من مجتمعهم.

إن حجماً معيناً من الطيبات يوزع بصورة عادلة على أفراد المجتمع يقيم حياة طيبة أعلى بكثير من ضعف هذا الحجم إذا ساء توزيعه، فاستأثر به البعض وحرم منه الأكثرون.

إنها سنة لله تعالى عامة مطردة لا تتبدل، إذا قامت الأمة بالوفاء لرسالتها، ونهضت بالواجبات الملقاة على عاتقها، مكنها الله تعالى في الأرض وأفاض عليها نعمه وعاشت حياة طيبة. وإن هي تنكبت الطريق الصحيح، وخانت

رسالتها وأعرضت عن منهج الله تعالى عاشت حياة نكدة، تملأها المشاكل، وتكتنفها الصعاب، حتى تحكم فيها سنن الله تعالى حكماً نهائياً.

١/٣/٤: مثل من القرآن يشرح هذه السنة

لقد قرر الله هذه السنة في العديد من الآيات التي أوردنا بعضها، وضرب لنا مثلا لعلنا نعقله، يبين لنا عاقبة الخروج على شريعة الله تعالى، وعدم وفاء الأمة لرسالتها، يقول تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾[النحل:١١٢].

إن هذه الآية الكريمة تعرض لنا سنة الله تعالى في المجتمعات، ومتى يفي دخلها القومي بحاجات أفرادها، ومتى لا يتحقق لها ذلك؟ إذ تعرض الآية حالة القرية وهي ملتزمة، قائمة بواجباتها، تبذل جهدها في إقامة علاقات خارجية اقتصادية، وتسعى سعيها في ممارسة الإنتاج، وحسن الاستهلاك، مما حقق لها الأمن في مجالاته، وما يترتب على الأمن من الاطمئنان وطيب الحياة، ثم عرضت الآية الكريمة حالة القرية، بعد أن غيرت سلوكها ونقضت عهدها وكفرت بأنعم ربها، فتبدل حالها في جميع المجالات.

كانت القرية في الحالة الأولى تعيش مستوى معيشياً طيباً وتنعم بالأمن والاطمئنان لأنها:

١) تطلب رزقها من كل مكان، أي تعمل في شتى مجالات الإنتاج في التجارة والزراعة والصناعة، وشتى مرافق الحياة، تعمل فتحصل على رزقها، وتعمل فتنتج وسائل الدفاع، وتنصب من يحفظون أمنها الداخلي والخارجي،

فيتحقق لها الأمن، كانت هذه حالها، طالما هي قائمة على العمل، فلما كفرت بأنعم الله تعالى عليها، تبدل أمنها خوفاً، وطيب عيشها جوعا، فما هو هذا الكفر الذي بدل حالها ؟ إنه النكول عن العمل، الذي كانت تمارسه، أي عدم استخدام نعم الله تعالى فيما خلقت له، عدم استعمال الطاقة البشرية التي يملكها الأفراد، وعدم استخدام الموارد المادية التي وهبها الله تعالى لها، ممثلة في الأرض وما عليها من إمكانيات وما في باطنها من موارد. وهناك في الغالب- تلازم بين عدم استخدام الإمكانيات البشرية، وعدم استخدام الإمكانيات المادية.

إن الكفر هنا ليس إنكار وجود الله تعالى، وإنما هو عدم استخدام نعم الله فيما خلقت له، فالآية الكريمة لم تقل: فكفرت بالله وإنما قالت: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل:١١٢] فماذا كانوا يصنعون؟ إن صنعهم هو نكوصهم عن استخدام موارد الله تعالى فيما خلقت له، إما بعدم الاستخدام من الأساس كسلاً مثلا، وهذا تبديد وتضييع، وإما باستخدامها فيما حرم الله تعالى، وهو تبديد وتضييع أيضاً، وإما باستخدامها استخداماً سيئاً بالإنفاق على الكماليات وترك الحاجيات والضروريات، وهذا تبديد وتضييع كذلك.

إن المثل الذي ضربه الله تعالى لنا، يقرر أن الكفر بنعم الله تعالى، أي عدم البحث عنها واكتشافها، ثم استخدامها فيما ينبغي أن تستخدم فيه عقلاً وشرعاً، طريق إلى التخلف الاقتصادي، الذي تتمثل أهم مظاهره في الخوف على الحاضر والمستقبل، لأن الجماعة لا تملك مقومات الدفاع عن نفسها، فلا تلبث الأمم

الأخرى أن تتكالب عليها، كما تتمثل مظاهره في الجوع وعدم إشباع الحاجات، لأنها لم تنتج القدر الكافي من الطيبات التي تحقق للجماعة أمنها الغذائي. وإذا اجتمع على الجماعة الخوف والجوع فإنها تكون في أشر حالات التخلف، وأسوأ حالات الاحتياج.

إن الجائع قد يغريه الأمن، فالآمن قد يصبر على الجوع، وربما يستطيع أن يعالج موقفه في ظل الأمن، وإن الخائف قد يجد في ثرائه بعض العزاء، وربما يتمكن في ظل هذا الثراء من إصلاح أوضاعه الأمنية، أما إذا اجتمع الجوع والخوف، أي سوء الأوضاع المعيشية، واختلال الأحوال الأمنية، قلوب واجفة، وبطون خاوية، فأي شيء يتعزى به؟ وأي وضع يصبر عليه ؟ وأية أحوال يمكن إصلاحها في ظل الجوع والخوف؟ لا شك أنه يكون في أسوأ الحالات، وأقسى الظروف، وليس ذلك إلا بما كان يصنع، عندما أهمل وبدد وضيع نعم الله تعالى بصورة من صور التضييع والإهمال.

إن تغيير الأوضاع وتحسين الظروف، وتحقيق الأمن، وإنجاز التقدم، إنما يتحقق بتغيير هذا الصنيع بصنيع آخر، واستبدال الإنجاز والعمل بالإهمال والكسل، وإعمال العقول في اكتشاف سنن الله تعالى في أرضه، وإتباع هديه في اكتشاف الموارد، وابتداع أفضل الأساليب لإدارتها، وأرشد السبل في الاستفادة منها عند ذلك تستعيد الجماعة- في المثل القرآني الذي نحن بصدده- الأوضاع التي كانت عليها، قبل أن تكفر بنعم الله تعالى، وتخرج عن هديه، عند ذلك يعود إليها الأمن والاطمئنان، ويأتيها رزقها رغدا من كل مكان، لأنها سعت إلى تحصيله، طبقاً لسنة الله تعالى في تحصيل الرزق والحصول على الدخل.

إن هذا المثل الذي ضربه الله لنا- وكل الأمثال في القرآن الكريم- إنما ضربت من أجل العظة والاعتبار، وما يتعظ ويعتبر إلا أصحاب العقول

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾

[العنكبوت:٤٣]

إن الأمة الإسلامية اليوم في مجملها، قد اجتمع عليها الخوف والجوع معاً، فهي لا تنتج ما يمكنها أن تدافع به عن نفسها، وهى لا تنتج ما تسد به حاجات أبنائها، فهي عالة على غيرها في وسائل الدفاع، كما هي عالة في وسائل الإشباع، وقد بلغ بها الوهن إلى الدرجة التي يتحكم فيها أعداؤها في تسليحها وطعامها، فلا يسمحون لها من السلاح إلا بما لا يضرهم، ولا يقدمون لها من الطعام إلا ما يبقيها تابعة لهم، أما إن حاولت بعض بلاد الإسلام أن تنتج من السلاح ما يكافئ الأسلحة التي يملكها أعداؤها، فإنه يحال بينها وبين ذلك بشتى الطرق، وإن حاولت أن تكتفي من الطعام وضعت أمامها العراقيل والصعاب، إن لم تحارب علانية. وما تمكن أعداء الأمة الإسلامية من أن يفعلوا ذلك إلا بتفريطها في إمكانياتها وطاقاتها، وكفرها بنعم الله تعالى عليها، تلك النعم التي كان بالإمكان أن تكون من أقوى الأسلحة في يدها، تنال بها حقوقها، وتوفر بها الخير لأبنائها.

إن هذا المثل يجب أن يوقظنا من غفلتنا، ويطلعنا على حقيقة موقفنا، وأن يبصرنا بالطريق الصحيح إلى استعادة الأوضاع التي كنا عليها طوال تاريخنا

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾

[العنكبوت:٤٣]

إنها- كما قلنا- سنة الله تعالى لا تتبدل ولا تتحول، جاءت في أسلوب القضية الشرطية التي قلنا إن الجزاء فيها متوقف على تحقيق الشرط، من يستقم على أمر الله، ويوفر العدل الذي هو شريعة الله، تفيض عليه بركات الله تعالى ويأكل من فوق رأسه ومن تحت قدميه. يقول الإمام على كرم الله وجهه: «من أخذ بالتقوى غربت عنه الشدائد بعد دنوها، وأحلوت له الأمور بعد مرارتها وانفجرت عنه الأمواج بعد تراكمها، وأسهلت له الصعاب بعد انصبابها، وهطلت عليه الكرامة بعد قحوطها، وتحدبت عليه الرحمة بعد نفورها، وتفجرت عليه النعم بعد نضوبها، ووبلت عليه البركة بعد ارذاذها»[1].

٤/٤: سنة الله في الاستهلاك

خلق الله تعالى الإنسان لا تستقيم حياته بدون استخدام السلع والخدمات في إشباع الحاجات. أي لا تستقيم حياته بدون ممارسة الاستهلاك، ذلك أن الاستهلاك هو استخدام السلع والخدمات في إشباع الحاجات، ومن ثم فمن الطبيعي أن يسمح الله للإنسان بالاستهلاك ويبيحه، بل ويأمر به ويحث عليه. قال تعالى ﴿وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾[الملك:١٥]، فهذا أمر بالاستهلاك، بعد أن أمر الله تعالى في الآية نفسها بممارسة الإنتاج ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾[الملك:١٥]، والإنتاج- كما يتضح من الآية الكريمة- إنما يمارس في الأصل من أجل تحقيق امكانية تحقيق الاستهلاك، ذلك الاستهلاك الذي لا تستقيم الحياة الإنسانية إلا به.

---

(١) نهج البلاغة: جمع الشريف الرضي، نشر دار المعرفة، بيروت، بدون رقم أو تاريخ، شرح وتعليق الإمام الشيخ محمد عبده.